تأمين على الحياة . . .

قهوة صغيرة ، أو قل حانة حقيرة ، ينحشر فيها جمع من الصعاليك والفارغين ، يقضون فيها الوقت ، أو بتعبير أليق بهذا المقام : يقتلون الوقت بثرثراتهم الحادة العنيفة ، ومجادلاتهم التي يسودها العناد والمكابرة ، مفضيةً بهم إلى المهاترة والمشاجرة والعراك ، على حين يتجرعون نفايات الخمور . . .

من بين أوشاب هذه الحانة المدمنين شاب يدعى شافعي ، أو الأستاذ شافعي كما يصر هو نفسه على أن يدعو نفسه بهذا اللقب . . .

ولمَ لا يكون أستاذا ، وهو الذي لم يكد يخفق في حياته الدراسية ، وتلفظه معاهد التعليم ، حتى انزجّ كاتبا أو شبه كاتب في بعض دور المحامين ، فشهد المرافعات الخطيرة تتجاوب أصداؤها في جنبات المحاكم . . . ومرت أمام عينيه أضاميم القضايا ، فعلقت بأنظاره أمهات الاصطلاحات القضائية ، وتناهت إلى سمعه أحاديث كـتّاب المحاماة تتناول إجراءات المحاكم وما إليها من أساليب الحجز والإنذار والكيد للخصوم ؟

وهو على بذاذة هيئته يحاول أن يبدو أنيق المظهر . فرباط رقبته المهلهل الذي قرّحته الأدران يعقده عقدة ضخمة كأنها سلحفاة آخذة بتلابيبه ، وشعر رأسه العامر بالمقاذر يرّجله ويلطخه بالرخيص من الدهان ، وقد أطل من جيب سترته الأعلى قلم حبر ، أو بالأحرى أنقاض تاعسة من قلم ثمين لو أوتيت معجزة النطق لصاحت :

— ارحموا عزيز قوم ذلّ !

فان هذا القلم أقرب إلى الرمز منه إلى الواقع . . . ما أعياه عن أن يخط حرفا بله كلمة . . . ولم يكن الفتى ليريده على أن يجرى بشئ على القرطاس ، وإنما كان يتخذه شعاراً أو شارة تعلن أنه من حملة الأقلام !

كان الشاب يختلف إلى ذلك الحان دائبا لا يتخلف ، ويمضى فيه أطراف النهار وآناء من الليل لا يبرحه إلا خطفا . . . وكان صاحب الحان يلقاه بوجه جهم عبوس ، ونظرة نكراء يتوضح فيها الإزراء . . . أليس فى ذلك كله آية بينة على ما يتمتع به الشاب من ملحوظ المكانة فى دنيا التصعلك والفراغ ؟

وعلى الرغم من أنّ هؤلاء الرواد فى ذلك الحان قد ملتهم كراسيهم وضجرت بتشبثهم ، تراهم لا يشعرون بطائف من الملالة والضجر ؛ إذ كانوا يأنسون بهذا الصخب الذى لا يفتر وتلك المحاورات التى لا يخبو لها أوار ومتى كلّت حناجرهم أشرعوا أبصارهم إلى الطريق يجدون فيه مجالا للمتعة والسلوى ؛ فقد كان الحان قائما فى ملتقى شارعين من أكثر شوارع القاهرة ازدحاماً وحركة . . . المركبات على اختلاف أنواعها فى جيئة وذهوب ، والسابلة على تباين طبقاتهم وأزيائهم ؛ لا يفتر تتابعهم من رجال ونساء . . .

فى أصيل يوم كان الأستاذ شافعى يتحدث إلى حشد من الرفاق ، وهم متطلعون يستمعون إليه دون أن يفقهوا له قولا ، وما جعلهم يصبرون على الاستماع إلا أن كلا منهم يريد أن يوهم غيره بأنه من أولئك النفر المسايرين للتطور الاجتماعى المشاركين فى جديد أنظمته وأوضاعه . . .

ومن حق الأستاذ شافعى أن نسجل له ما أوتى من بصر نفاذ مؤثر بقلبه فيمن حوله ، ولسان ذلق تترادف عليه الجمل طنانة رنانة ، والكلمات فخمة ضخمة ، يلقيها مصطنعاً لهجة المحامين ، متخذاً طرائقهم فى الاشارة والتلويح ، فتسمع منه أمثال قوله :

الجهل بالقانون لا يعفى من المسئولية !

المتهم برىء حتى تثبت إدانته ! . . .

أيأخذ العامل أجره بحسب إنتاجه ؟ أم بقدر حاجته ؟

وبينما كان الأستاذ شافعى متدفقاً فى حديثه ، والجمع حوله شاخص مشدوه ، إذا بضجة تتعالى فى ملتقى الشارعين . فالتفت الأستاذ ناحية الضجيج ، فألفى الزحمة تتزايد ، والطريق تتعطل حركته ، وما هى إلا أن قفز من مقعده واقتحم الزحام ، وأرهف سمعه يتعرف الخطب ، فعلم أن صبى لبّان كان يسرع بدراجته الخربة عليها قوارير اللبن يوزعها على طلابها فى البيوت ، وفى ملتقى الشارعين صدمت إحدى سيارات الأجرة مؤخرة الدراجة ، فألحقت بها نوعاً

من العطب ، وكسرت إحدى قوارير اللبن ، فوقف الصبىّ فى بلاهة يندب سوء حظه ، ويتحسر على ما أصابه ، ويكرر على مسامع المجتمعين حوله خوفه مما ينتظره من حساب وعقاب ، على حين كان السائق يتصايح متهما الصبىّ بجهله نظام المرور وحداثة عهده بسياقة الدراجات . . .

وظل الأستاذ شافعى يدافع الناس بمنكبيه حتى بلغ مكان الخصمين ، فجعل ينقل بصره بينهما فاحصا وهو يرقب مجرى الحوار . . . وأوشك الجمع أن يتحازوا إلى جانب السائق فيما أدلى به من حجة تنفى تبعته . وكيف لا يصدقون رجلا يتربع على مقعده العتيد فى سيارة ضخمة يصور موقفه تصوير خبرة وتدقيق ؟ وكيف لا يكذبون ذلك الصبى الغرير الفأفاء الذى لا يحسن إلا الشكوى والتحسر والانخذال ، معبرا بذلك الوجه الشائه الذى تتخالف أقسامه حتى لتنأى به عن طلعة الانسان ، وتجعله أدنى إلى مرتبة العجماوات ، فلا يثير بشكله وبحديثه إلا السخر والاستهزاء ؟

وما هى إلا أن تقدم الأستاذ شافعى يجابه السائق بقوله :

— يجب أن نحدد المسئولية تحديدا واضحا يا حضرة . . . أنت فى سيارة ، وهذا الصبى فى دراجة ، والفرق جلىّ بينهما من حيث القوة على الضبط والربط ، وإنه سابق لك وأنت من ورائه تراه ولا يراك . . .

ومسح الصبى اللبان لعابه المتسايل على زوايا فمه ، ودعك أنفه المتفشى ، وحملق فى ذلك الشاب مشدوه النظرات . . .

وصمت الجميع إنصاتا إلى ذلك المدافع المنطيق بصوته الجهير . . .

ودبت الحماسة بين جنبى الأستاذ شافعى ، فعلا بصدره ، وأصلح رباط رقبته المنتفخ ، ثم انتزع قلمه العتيد من جيب سترته الأعلى ، واندفع يشهره فى وجه السائق ، وهو يقول :

— القانون صريح فى تحديد المسئوليات . . . إن . . .

فقاطعه السائق متحديا يقول :

— لا تدخل فيما لا يعنيك يا أفندى !

وأحس الأستاذ شافعى أن السائق يتحفز لشر ، نخشى المغبة ، وألفى قدميه تتراجعان . . . ولكنه لمح شبح الشرطىّ يتخطر فى طريقه إلى الميدان ، فعاودته الحمية ، واستأنف قوله متصايحا منتفخ الأوداج :

– كيف لا يعنينى ؟ أتعرف من أنا ؟

فأجاب السائق ساخر اللهجة :

– لم أتشرف بعد يا جناب « الحكمدار » . . . !

فعقب عليـه الأستاذ شافعى وقد ملك أعصابه ، قائلا فى تؤدة ، وهو يحكم مخارج الحروف :

– أنا السكرتير العام فى نقابة المحامين ، وعضو مجلس الادارة المنتدب ...

وتراءى شبح الشرطىّ وقد تصيدت أذنه بعض ما تفوه به الشاب الثائر ، فاستشعر له شيئا من التقدير ، ورآه يتجه إليه ، ويسترسل أمامه فى نبرات خطابية يشرح قصة اعتـداء السيارة على الدراجة ، غاليا فى التفصيلات ، متحذلقا فى التعليل والتأويل ، واختتم خطبته بقوله :

– القانون صريح . . . من أضرَّ بآخر لزمه التعويض !

وكان صبى اللبان قد انتبذ بدراجته مكاناً غير بعيد ، وعينه تنتهب الأستاذ شافعى ، وفمه ينفرج عن بسمة كريهة بلهاء !

واتخذ الشرطى سبيله إلى مكان الدراجة ، وقد اكتسى وجهه صبغة من التزمت والأنفة ، وراح يتفحص الدراجة كأنه خبير فنىّ يستشف بنظره حقائق ودقائق لا يعلمها إلا الأقلون . . .

وما إن أتم بحثه وفحصه حتى انطلق إلى مكان القارورة يقلب النظر فى كُسَارِهَا ، كأنه يستجلى غوامض مصرعها ، ثم داعب حطامها بحذائه الثقيل ، وما لبث أن ركله ركلةً ألقت به عند حافة الطوار مُجْهِـزًا عليه !

ورجع إلى السائق يقول عابس القسمات :

– خير لك أن تؤدى للصبى تعويضا . . .

وسرعان ما سرت فى الجمع همهمة استحسان لهذا الرأى ، وانقلب الجمهور فى لحظـة ظهيراً للصبى يأخذ السائق بأن يؤدى التعويض . . .

وألقى السائق نظرةً على الشرطى ، فلمح شاربه يهتز انفعالا واستنجازا ...

وألفى شراذم من غلمان الطريق قد تحلقت حوله وتألبت عليـه ، وإذا الأستاذ شافعى يتصايح معدّدًا ما لحق الصبى من أضرار ، وما على السائق من تبعات . . . فلم يجد السائق مفيضا من الاحتكام إلى الشرطى فى تقدير التعويض ، راضيا بما يكون من حكمه فى هذا الصدد . . .

فأزاح الشرطى طربوشه إلى الوراء ، وفتل شاربه ، ثم نطق بقوله :

— أعطه عشرين قرشا . . . لقد أصاب الدراجة تلف شديد . . .

دفع السائق هذا المقدار صاغرا ، وتناول الصبى النقود فاغرا فاه من دهشة واغتباط ، وصاح الشرطى بالجمع أن تفرَّقوا . . . وسرعان ما انقشع الزحام !

انطلق صبىّ اللبان يجرجر دراجته فى تسكّع ، وهو ينظر إلى يده مطبقة على النقود ، فلم يكن لديه موضع آمَنُ من هذه القبضة القوية . . . أيأتمن على النقود جيبه المتهتك فى ذلك الثوب البالى المهلهل الذى لا يؤمن على شىء ؟

سار وقتا لا يخطر بباله شىء ، ولا يفكر إلا فى مصرف هذا المبلغ الضخم . . . إنه أكبر مبلغ ملكه منذ عرف المال حتى هذه الساعة البيضاء !

وفيما هو على حاله ، يقدر ويدبّر ، أحس شخصا يتهادى على قرب منه ، وإذا هو الأستاذ شافعى ينظر إليه فى تلطف وهو يقول :

— ما رأيك ؟ أمسرور أنت ؟

فانبسطت أسارير الصبىّ ، وأطلق ضحكة شوهاء ، وقال :

— طال عمرك ، وبقى أولادك !

— يبدو لى أنك ولد رقيق الحال . . . ما اسمك ؟

— الفولى . . .

— ماذا تعمل ؟

— صبىّ لبان . . .

— عند من ؟

— عند المعلم فتح الله . . . ألا تعرفه ؟ الرجل ذو الشارب الغليظ ، والكرش العظيمة !

وانطلق يوالى ضحكاته ، فأسكته الأستاذ شافعى بإشارة منه ، وقال له فى جدّ :

— ماذا أنت صانع بالدراجة العاطبة ؟ وماذا أنت قائل للمعلم فى شأن قارورة اللبن المفقودة ؟

فنظر إليه الفولى ذاهلا يقول :

لم أفكر فى هذا قط !

— إنه سيطالبك بالعشرين قرشا ، لأنها تعويض عن قارورة اللبن وعطب الدراجة . . .

فبدا على وجه الصبىّ حيرة وتخوّف ، وجعل يردد وكفه تزداد انقباضا على ما فيها :

— كيف يأخذ النقود منى ؟

— هى من حقه . . .

وحنا الفولى رأسه فى قنوط واغتمام ، وأخذ يردد :

— وماذا أصنع إذن ؟

— نبحث المسألة ، لعلنا نجد لك مخرجا معقولا ، أنت بائس محتاج ، وأنا مستعد أن أعينك على أمرك . . .

فقال الصبىّ وقد شرق بدمعه ونظر إلى الشاب نظرات توسل وركون :

— طال عمرك ، ويبقى أولادك . . . أنا محتاج حقا . . . أنا يتيم ليس لى من أعوّل عليه . . . وأنا أعمل عند المعلم بالقوت الضرورى ، وياليته راض عنى ، فلشدّما يضربنى ويخزنى ويهددنى بالطرد . . .

واندفع يشكو ويتضرع ، راغباً فى طريقة يحتفظ فيها لنفسه بالنقود . . . وراح الأستاذ شافعى يدور حول الدراجة متفحصاً إياها بعين الخبرة ، أو بالحرى يوهم الفولى أنه ذلك الفاحص الخبير . . . ثم همهم :

— ربما لاحظ المعلم عطب السيارة فسألك عنه ، وربما غاب عنه الأمر ، وبذلك تنجو من سؤاله وحسابه . . . أقوىّ النظر هو ؟

— عينه كعين الصقر . . .

— هنا نقطة ضعف فى المسألة . . . ولكن ثمة وسائل لإنقاذ الموقف !

— بربك ساعدنى . . .

وتشبث به الفولى ، فراح الأستاذ شافعى يعتصر جبهته برهة ، ثم واجه الصبى سباغتاً إياه بقوله :

— سألقنك بعض جمل قد تنفعك . . . قل إن ما حدث كان قضاء وقدرا ، ولا رادّ لقضاء الله . . . قل إنك سليم النية لم تضمر أىّ سوء . . . قل إن

السيارة حين اقتحمت الدراجة أقبلت أنت على الدراجة تحميها وتحمى ما عليها من قوارير ، حتى دمى جسمك ، وتمزق ثوبك . . .

ووقف الشاب يتوسم الصبي لحظات ، ثم قال :

— يجب أن يدمى جسمك ، وأن يتمزق ثوبك . . . !

— كيف ؟

— أعاجز أنت عن أن تخدش نفسك وتشق ثوبك وتتمرغ فى التراب ؟

— أليس من هذا بد ؟

— لابد من ذلك لابد . . . لا مخلص لك إلا بهذه الوسيلة . . . إن المعلم إذ يراك على هذا النحو يشفق عليك . . .

فابتسم الفولى ابتسامته العريضة ، وقال :

— أمرك !

وانتحى الأستاذ شافعى والفولى ناحية من الطريق مهملة ، وشرع الصبى يؤدى لنفسه مهمة الخدش والتمزيق والتمرغ وفق التعليمات المرسومة ، حتى بلغ من ذلك ما أراد . . .

فما إن رآه الأستاذ شافعى حتى ربَّت كتفه ، وقال :

— أحسنت !

ثم تابع قوله :

— لا تنس أن تتدانى إلى الحانوت ، متخاذل المشية ، ذليل القسمات ، تتلوى من الألم . . .

ثم استمر يشرح له الخطة ، ويلقنه الأجوبة ، ويزوده بالنصائح وبما يواجه به المفاجآت . . .

وبعد أن وعى الفولى ما سمع ، تهيأ للمضى فى الطريق ، فنظر إليه الأستاذ شافعى مليًّا ، ثم تصنَّع ابتسامة الفطنة ، وقال :

— أراهن على أنك تريد منى أن أرافقك فى مهمتك ، حتى أخلصك من سطوة معلمك !

فأجاب الفتى فى سذاجة :

— أبقاك الله ، وحفظ أولادك . . . إن هذا لجميل منك . . .

وهنا وقف الأستاذ شافعى وقفة حزم ، وقال :

— ولكن مسألتك أضاعت من وقتى ساعتين ، فماذا تبغى منى فوق هذا ؟ لدى قضية مهمة لا مخلص من إنجازها ، وجلسة فى النقابة علىّ أن أشهدها . . .

فأخذ الفولى يتضرع قائلا :

— إنى خائف من المعلم !

ولبث الأستاذ شافعى يمط شفتيه فى امتعاض ، مظهراً التردد والإحجام ، ثم بسط ساعده ، واستشار ساعة يده الخربة ، وداعب ذقنه لحظة ، وأخيراً قال :

— لا بأس ... دقائق أخرى من أجلك ... أنت ولد تستحق المساعدة ...

وابتهج الفولى بذلك الفوز ، فأقبل على يد الأستاذ شافعى يغمرها بقبلاته ...

وأخذا يتوجهان وجهة حانوت اللبان ، فقال الأستاذ شافعى :

— عليك أن تتقدمنى خطوات ، حتى لا يراك أحد معى فيرتاب فى الأمر . . . إنى مراقبك من بعيد . . . وسأتدخل فى الوقت المناسب !

وأخرج علبة لفائفه وفتحها ، ثم قذف بها فى عرض الشارع متسخطا يقول :

— ليس فيها لفائف !

فقال الفولى على الأثر :

أذهب لأشترى علبة ؟

— لا مانع . . .

وأخرج محفظته المنتفخة بالأوراق ، وألقى بصره عليها ، ثم زوى ما بين حاجبيه ، وقال :

— لا داعى للفائف الآن . . .

— ولم ؟

— ليس معى إلا ورق مالى كبير لا يصرف هنا . . .

قال ذلك وقد سلط عينه على كف الفتى يريد أن ينفذ ببصره إلى الريال المختنق فى قبضتها . . . فقال الفولى وقد أحس النقود تضطرب فى يده :

— ربما كان من المستطاع صرف ورقة من الورق الكبير ... ألا نجرب ؟

فقال الأستاذ شافعى محتدًّا :

— حسبى ما ضاع من وقتى . . . أتريد أن تفوتنى القضية وجلسة النقابة ؟

— لا أحب أن أراك متضايقاً كما أنت الآن . . .

فصاح به الأستاذ شافعى صيحة عنيفة :

– قلت لك إنى مرتبط بمواعيد . . .

فوقف الفولى منكمشا ، ثم أخذ يهرش رأسه ، وانسرح يفكر ، وهو يردد بصره بين قبضة يده يختزن فيها كنزه وبين الأستاذ شافعى يقف وقفته العصبية . . . وأخيراً لم يجد بدًّا من أن يقول :

– أذهب لشراء علبة وأدفع ثمنها مما عندى . . . وحين تصرف الورقة ترد إلىّ الثمن . . .

– ما هذا الكلام الفارغ يا ولد !

وتضرع إليه الفولى أن يقبل هذا الحل . . . وبعد تمنع ومناقشة قبل الأستاذ شافعى فمدّ يده وانتزع النقود من يد الصبى وهو يقول :

– أفضّل أن أشترى علبة اللفائف بنفسى . . . اسبقنى وأنا وراءك !

وسار الفولى يجرجر درّاجته المتداعية ، وقوارير اللبن يرتطم بعضها فى بعض ، وكأنها تتساءل عن مصيرها بعد أن تغير البرنامج المرسوم لها كل يوم . . . !

تبع الأستاذ شافعى خطوات الصبى ، وكان كلما قطع من الطريق مرحلة ازداد عنه تباعدا . . . وبين الفينة والفينة يلتفت إليه الفولى ليشعره بأنه أمامه يهديه السبيل . . . !

وازدحم السابلة أثناء السير ، فلاحت الفرصة للأستاذ شافعى كى ينجو بالغنيمة ، ولكن عين الفولى لم تنم عنه ، فأفسدت عليه تدبير الهرب ، وأحس كأنه محصور يخضع لرقابة ذلك الفج الغرير . . . !

على أنه اعتصم بالصبر ، وحث خطاه ، مزمعا فى دخيلة نفسه أن ينتهز أول فرصة للخلاص من تلك الرقابة البلهاء !

ولكنه ما عتم أن ألفى نفسه قبالة حانوت اللبان ، حيث تهيأ الفتى ليلج بابه متخاضع الهامة ذليل الخطا . . .

وكانت وجهة الحانوت بيضاء مغبرة قذرة ، وعلى عتبة الباب يتسايل الماء فيملأ البقعة بالأوحال . . . ومن خلال زجاج الوجهة يتراءى مصباح كهربى يتدلى فى نحو مبتذل ويتهافت شعاعه الواهن على تمثال رخيص شائه لحيوان أوضح ما فيه ضرع كبير ، لا تدرى أبقرة هو أم لبؤة أم هرة عجوز ! . . . وخلف هذا شبح كتلة بشرية ضخمة غير واضحة المعالم ، يتعالى

منها صوت متحشرج تشيع فيه رنة السخط ، ما أشبهه بخشخشةمذياع خرب !

لمح الأستاذ شافعى هذا المنظر ، وتناهى إليه ذلك الصوت ، فألفى نفسه قد انزوى فى ناحية يتطلع ويتسمع ، يدفعه الفضول إلى تعرف ما يكون . . . واستطاع أن يتابع فى صعوبة خلف زجاج الوجهة الكدر مشاهد الرواية بين بَطَلَيْها : المعلم والصبى !

الكتلة البشرية تتحلحل ، شبح الفولى عن كثب منها يتخاذل الظل الناصل أمام الضوء الكاشف . الحشرجة تنقلب زمجرة حبيسة كزمجرة الاعصار حين يتهيأ للزفيف . الكتلة تنقضّ على الظل الناصل فاذا هو لا عين ولا أثر . الاعصار يعصف كأنه دوَّامة موّاجة يضيع فيها صراخ الاستغاثة المضعضع . . .

وما هى إلا ان أنقذفتْ من الحانوت إلى الطريق تلك المزقة الآدمية التى تدعى الفولى ينبعث منها تأوه وانتحاب . . .

وسرعان ما تهافت حول الصبى الصريع نفر من الفضوليين ما كاد يتبينهم حتى انطلق يشكو لهم بأساءه وما حل به من ضرب وجيع بلا جريرة ولا ذنب . . .

وكان يتطلع يمنة ويسرة باحثا عن منقذه وأمين كنزه الثمين ، فلم يره على فرط التلفت والتصفح للناس . . .

وعمرت الحلقة بعابرى السبيل ، وأخذ الناس يتذمرون ويتبادلون شعور الاستياء من صاحب الحانوت ، بعد أن تجلى لهم ما بَرَّح بالفتى من الآلام ، وما أصابه من جراح . . .

فى هذه اللحظة بزغ المنقذ ! . . . فاخترق الحلقة ، وشرع يسائل ، وتطلَّق وجه الفتى ، وتهادت الكتلة البشرية الضخمة بشاربها الغليظ ، وهى تصيح بالجمع أن يتبدد . فخطا الأستاذ شافعى خطوة إلى الأمام وقد علا بصدره ، وانبرى يسوّى رباط رقبته المنتفخ يستمد منه الحمية والتشجع ، وقال :

— هذا الولد مظلوم ، خليق بالرثاء !

فأرعد المعلم قائلا :

— إنه أخبث مخاتل خداع . . .

— وهذه الجراح ؟ وتلك الكدمات ؟

واقترب الأستاذ شافعى من الصبى يتحسس أوصاله ، وصاح ملتفتا إلى الجمع :

— يلوح لى أنه قد أصيب بكسر فى ترقوته !

فهمهم الجمع :

— ترقوته ؟

والتفت الأستاذ شافعى إلى الصبى يقول :

— قم يا ولد . . .

وما كاد الصبى ينهض حتى صاح الأستاذ شافعى :

— شَدَّ ما يتألم !

وفى هذه اللحظة سمع الصبىّ يجأر بالشكوى ويتوجع . . . وتابع الأستاذ شافعى قوله :

— إنه ليتعذر عليه أن يقيم صلبه . . . انظروا إليه يتهالك على الأرض مثخنا بجراحه !

وما أسرع أن ارتمى الفولى على الأرض ، فواصل الشابّ قوله :

— يالله ! المسكين يكاد يفقد وعيه . . .

وما إن أتم قولته ، حتى تمدد الصبى خامد الأنفاس . . .

وصاح الشاب يقول :

— هذا ما كنت أخشاه . . . حقا إن ترقوته قد كسرت ، وهذ أعراض انكسارها . . . يجب أن نستدعى سيارة الاسعاف و إلا . . . و إلا أفلتت فرصة العلاج !

طرقت هذه الكلمات سمع المعلم ، فبدا عليه التعجب والدهش ، ولكنه ظل رابط الجأش ، متملكا زمام نفسه ، وافتعل ضحكة شنعاء . قائلا :

— ماذا تقول يا أفندى ؟ أية ترقوة ؟ وأىّ إسعاف ؟

ومد قدمه إلى الصبى يغمزه ويقول :

— قم ياولد . . .

ولكن الفولى كان حريصا على الاذعان لنصائح الشاب ، فلم يبد فى رقدته حراكا . . . وكان وهو ممدود على أديم الأرض تكسو وجهه الجراح ،

وتعلو ثيابه الأوحال ، حريا أن يستثير مشاعر العطف والاشفاق . . . فتعالت همهمة سخط وتغيظ بين جمهرة النـاس ، فقال أحـدهم يوجه كلامه إلى المعلم :

— أليس فى قلبك ذرة من رحمة ؟ إن الولد يجود بنفسه !

فصاح الأستاذ شافعى وقد انحنى على الصبى يتحسسه :

— الحالة خطرة . . . أخشى أن يكون قد أصيب بنزف باطنى . . . ألا أجد رحيما يسعفنا ببعض المنعشات ؟

فهرع جمع من الناس يحضرون المـاء والخل . . . وأقبل الأستاذ شافعى على الصبى يدلـكه وينشقه ، ثم تركه لبعض السابلة يتعهدونه ، وقصد إلى المعلم ، ووقف أمامه وجها لوجه ، وقد عقد حاجبيه ، وخطف قلمه العتيد التداعى من حيب سترته الأعلى ، وجعل يلوح به قائلا :

— ألا تعلم أنك عرضت نفسك لمسئولية جنائية صريحة ؟

فغمغم المعلم وقد تغضن جبينه :

— مسئولية جنائية ؟

— حقا . . . إنها لمسئولية خطيرة ، تزُجّ بصاحبها فى محكمة الجنايات !

وهمّ المعلم أن يرفع الصوت مستنكرا ، فوجد الكلمات تختنق فى زوايا حلقه. وكان الأستاذ شافعى يرقبه بالنظر الثاقب ، فلمح شارب المعلم الضخم المتشامخ يتهدل ويتطامن . . .

فصاح على الأثر :

— لا أقل من سجن خمس سنين . . . أوَحسبت أنه لا حساب ولا عقاب ؟

وأخيرا استطاع المعلم أن يقول :

— وحضرتك من تـكون ؟

— ألا تعرفنى ؟

— لم يسبق لى شرف التعرف . . .

— أنا السكرتير الخاص لنقابة الطب الشرعى ، وعضو اللجنة العليا للاسعاف ! . . .

فأجاب المعلم مختلج الأنفاس :

— وسعادتك . . . بماذا تأمر ؟

— لا شأن لى بالموضوع . . . لا مصلحة لى قط . . . علىّ أن أبلغ الأمر للسلطات المختصة . . . هذا كل مايجب أن أعمله ، أما الاجراءات القضائية فانها تأخذ مجراها . . .

فمد المعلم فتح الله يده إلى كتف الأستاذ شافعى ، وجعل يربتها فى ترفق ، ثم اجتذبه من الزحمة متلطفا وهو يقول :

— تعال معى إلى الحانوت نتحدث على مهل . . .

وسار به إلى الحانوت ، وواصل قوله :

— هذا الولد عندى كأحد أبنائى ، وقد ربيته ، وليس بعسير علىّ أن أعالجه . وأن أنفق عليه حتى يذهب عنه ما به . . .

ودخل كلاهما الحانوت ، فعمد المعلم إلى الباب يغلقه ، وشوهد شبحاهما من خلال الوجهة الزجاجية ، وقد انتحيا ركنا قصيا ، وانبريا يتناقشان ويتحاوران . . . ثم شوهدت الكتلة البشرية تدس خفية فى يد الأستاذ شافعى شيئا لم يكد يلمسه حتى خفّت حدته فى المناقشة ، وانقطع عن اللجاج !

وخرجا من الحانوت يظللهما الصفاء . . .

وسمع الناس الأستاذ شافعى يخاطب المعلم بقوله :

— سأتولى الأمر بنفسى ، ولكن كن حكيما فى معاملة الغلام ، ولا تدع غضبك يسيطر عليك . . .

وأمر باحضار مركبة من مركبات الخيل ، فلما حضرت حمل إليها الفولى ، ووثب الأستاذ شافعى يتخذ مجلسه بجواره ، ومضت بهما المركبة بين أخلاط الزحام . . .

وما إن ابتعدت عن الحى حتى اعتدل الفولى فى جلسته ، وتطلع إلى وجه منقذه يبتسم ابتسامته البلهاء ، فزجره الأستاذ شافعى بنظرة حادة ، ثم استل من جيبه الريال العتيد ، ودفع به إلى الفولى ، قائلا له :

— خذ نقودك . . .

— واللفائف ؟

— لا حاجة لى بها الآن . . . حسبى ما أضعت من وقتى فى مشكلتك الأولى والأخرى . . .

ترادفت على يوم هذا الحادث شهور . . .

وظهر فى المنتديات وفى المجالس الكبيرة شابان تزينهما حلة إفرنجية ، أحدهما حديد البصر يعنى برباط رقبته ذى العقدة الضخمة ويصلحها بين حين وحين ، وتراه يتحسس تارة قلم الحبر الثمين ذا الغطاء المذهب ، وهو سطل من جيب سترته الأعلى . . . وبجوار هذا الشاب فتى يافع يلازمه ملازمة الظل . لا ندرى أآدمى هو بحق أم هو من ذلك النوع البدائى المنقرض من سلالة الانسان ، ذلك الذى تخيله داروين حلقة الاتصال بين القرد والبشر . . . فهو على الرغم من جدّة حلته ، يبدو مختل الزى بلا هندام ، حركات شاذة فى النهوض والسير والتلفت ، وإشارات طائشة يبعثرها فى غرارة ، وابتسامة عريضة بلهاء تبتلع وجهه الشتيم !

ولشد ما يبادره رفيقه بالتعنيف ، إذ يقول له :

— قلت لك دع هذه الابتسامة ، لا تضحك على هذا النحو ، متى تتعلم !

فيتطلع إليه الفتى على حاله لا يكاد يشعر بما قيل له ، ويجيب ساذج اللهجة :

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟

— أريد أن تكون كخلق الله !

— ألست من خلق الله ؟

— إنك لحيوان . . .

— طال عمرك ، وبقى أولادك !

وينفرج فمه أكثر من ذى قبل ، وتتوضح ضحكة كأنها تثاوبة بشعة . . . فينظر إليه الشاب الأنيق نظر الاشمئزاز ، وتعتلج فى نفسه نزعة جامحة إلى صفعه ، ويلفى كفه تختلج ، ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه قذف فى وجه الفتى ورقة مالية صغيرة ، وهو يصيح صيحة الاسرة :

— حل موعد الطعام ، فاعزب عنى ، وأرحنى من طلعتك بعض الوقت . . .

فيتلقف الفتى ورقته مغتبط النفس ، ويقول :

— لا حرمنى الله فضلك وإحسانك . . .

— لا تتأخر . . . يجب أن ألقاك فى الموعد . . .

ثم يحسر كمه عن معصمه . ويلقى بنظرة خاطفة على ساعته الذهبية الوهاجة ، ويواصل قوله :

— أمامك ساعة . . . ستون دقيقة فقط . . . أفاهم ، أنت ؟

— فاهم يا سعادة البك . . .

— إن وقتى محسوب علىّ . . . القضايا يأخذ بعضها برقاب بعض . فحذار أن تتخلف . . .

— كان الله فى العون !

— إن الله تعالى لم يشأ أن يعيننى بمعرفتى بك . . . لقد زادت متاعبى منذ سقطت علىّ . . . ولكن ماذا أنا صانع ؟ أألقى بك فى عرض الطريق ؟ لك رزق . . . إنما نطعمكم لوجه الله . . .

— عمر الله بيتك !

— اذهب لشأنك وتذكر موعد اللقاء . . .

ويخرج « شبه الآدمىّ » يقفز فى مرح ، تراوده شهوات الطعام وألوان المآكل . . .

منذ يوم الحادثين التاريخيين — حادث السيارة ، وحادث المعلم فتح الله — تاحت للأستاذ شافعى فرصة تتجلى فيها مواهبه على نحو جديد . . .

فكر فى شأن ذلك الصبى ، فرأى أنه إن اتخذه تلميذا يستخدمه فى مثل هذه الحالات أصاب منه رزقا حسنا . . .

وكان الأستاذ شافعى فطنا حصيفا لا يتهور ؛ فهو لا يتقدم خطوة إلا إذا مهد لقدمه موضعا ، فبدأ يصطنع الصبى على نحو يأمن معه الزلل والافتضاح ، واتخذ من حادثة المعلم فتح الله أساسا للعمل ، فسعى فى إلحاق الفولى بمحل آخر على نحو ما كان ، وأعاد تمثيل الرواية بعد أن أتقن تجربتها وأبدع فى إخراجها وزادها فصولا إلى فصول ؛ فقد كان الأستاذ شافعى مجدِّدًا حقا فى أساليبه ، لا يركن إلى طريقة واحدة فى الاعادة والتكرار . . . ولا يكاد ينفض يده من حادثة ، حتى يمضى بربيبه وصنيعته إلى صيد جديد .

صدقت الحكمة القائلة بأن الحظ إذا واتى إنساناً ألفه ، فلم يغدر به ؛ وإذا أخلف لم يكن له من عود ؛ فالأقدار التى أخذت بناصر الأستاذ شافعى ظلت تمنحه العطف والتأييد . . .

فقد وقعت يوما حادثة ما أجدرها أن تكون محور تحول فى خطة ذلك الشاب المغامر ، إذ أصيب الفولى فعلا بصدمة سيارة كادت تتركه فى ذمة المنون . . . فما أسرع أن رفع الأستاذ شافعى الأمر إلى القضاء ، فحكم له بتعويض أدته شركة التأمين التى كانت تضمن حوادث هذه السيارة . . . فقد ثبت أن الصدمة تركت ما يسميه الطب الشرعى : « عاهة مستديمة » ... ولم تكن فى الواقع عاهة يأبه لأمثالها الفولى ونظراؤه من ذلك الضرب البشرى الذى هو عرضة للجد والاحتمال . . .

هنا انفتح لعين الأستاذ شافعى مجال تكمن فيه الذخائر والكنوز ، هذا المجال المبارك عنوانه :

« العاهة المستديمة » !

وعلى كرّ الأيام اتخذ الموضوع منحى عمليا لا يخلو من خطر ، إذ وجد الأستاذ شافعى نفسه أمام ميدان يتطلب الجهاد فى جدّ وإحكام ، ولم يكن هذا ليعييه . . .

وبذلك أصبح ذات يوم فألفى نفسه مُرَوِّضا حقا لهذا الحيوان شبه الآدمىّ . سروضا له على نهج مرسوم وخطة مقررة لغاية واضحة تمام الوضوح . . . !

وكان عليه أن يتذرع بالصبر والحلم ومكابدة المشاق ، يغدق الرحمة والحنان أحيانا حتى يبلغ الأمر مبلغ التدليل ، ويقسو تارة أشد القساوة حتى يسوم ربيبه سوء العذاب . . . فهو صيدلىّ يتخذ من الأدوية والسموم ما يلائم ملابسات الأحوال ، حتى يستطيع بذلك أن يجبل هذا الحيوان شخصية ماهرة تجيد اللعب فى مخاطر الحياة ، كما يجيد البهلول قفزاته العالية يتطوح بها يمنة ويسرة فى حلقات الملاعب . . .

لقد غدا الأستاذ شافعى فى حياته الجديدة مبتكراً مخترعاً ، يحتبس فى مكتبه ليرسم الخطط ويعد التجارب ، فاذا فرغ من رسمها وإعدادها عمد إلى صنيعته يلقنه الدرس ، ويريده على ضروب من التمرين ، ثم يجرجره معه كما يجرجر الصياد شبكته، ويرمى به فى معمعان الحياة وعباب الأحداث ، ثم يجذبه فاذا هو مملوء الوفاض بالمغانم والخيرات !

أما الفولى فكان يسلم قياده لأستاذه ، لا يعصيه ولا يخالفه فى أمر أو نهى . . . لقد وهب لأستاذه كامل ثقته . فلم تكن المخاطر تهزّه أو تهوله ،

ما دام أستاذه هو الذى يدفعه إليها دفعا . . . لا مرية أن السلامة مكفولة مهما ينله من إصابات ، فما كان لأستاذه أن يريد به السوء !

وأخذ الأستاذ شافعى يتنقل فى البلاد مستصحبا صنيعته ، لا يستقر له قرار فى بلد واحد ، يرتاد المصايف والمشاتى ، حسبه أن يزج بصبيه فى المزالق والمآزق فلا تلبث المغانم أن تفىء إليه باردة طيبة لا تكلفه عنتا . . . فعاش عيش المترفين المنعمين ، يلقى من مائدته فتاتا لربيبه الصبى ، فيلتقطه مجبوراً تقر عيناه . . .

واتسعت مناطق عمل الشاب ، وازدادت المشروعات بين يديه ، فكان يؤثر منها أضخمها تبعة وأثقلها كلفة . . .

وسارت الأمور على هذا النحو . وتكاثرت فى جسد الفولى ألوان « العاهات المستديمة » فأصبح كالثوب المرقع ، بقيت فيه المزق ، ولعب بأصله العفاء !

وأصبح للفولى اسم ذائع الصيت فى المشافى والمصحات ، يقضى فيها من أيام عمره أكثر مما يقضيه خارجها من أيام السلامة والعافية . . . وكان ذلك مما يغريه بالمخاطر ويشجعه على اقتحامها ؛ فان عيش المشافى والمصحات أهنأ وأمرأ ، وإن حياته فى تلك الدور لهى حياة رفاهية ومتاع ، إذ هو بين أيدى الممرضات يتعهدنه ويلاطفنه ويقدمن له أنظف الملبس وأطيب الطعام والشراب . . .

وتعاقبت الأيام والفولى مطمئن بحياته ، رافه البال ، يعيش فى قفص من عاهاته المستديمة كما تعيش القوقعة فى محبس من صدفتها ، أو السلحفاة فى حصن من درعها الصخرية . . .

ولكن الأستاذ شافعى لم يعد يشارك الصبى هذه الطمأنينة ؛ فقد سمع مرة من الجراح الذى تولى علاجه أن هذا الصبى لن يعيش طويلا إذا تعرض لصدمة أخرى . . . فوقع هذا النبأ على الأستاذ شافعى وقوع الصاعقة ، وفكر فى الأمر مليا ، واضطر أن يخفف من وطأة المغامرات التى يورط فيها ربيبه ، وأحاطه بموفور الرعاية . . .

وكان كلما خطر بباله أنه قد يفقد الفولى يوماً ، شعر بصرح آماله يتقوض ، وتأمل فى نفسه ، فلم يجد أنه قد ادخر مما كسب شيئاً لمثل هذا

اليوم ، اليوم العصيب المنتظر . . . فقد كانت المائدة الخضراء ، ومناضد الشراب ، ومجالس الغوانى ، تتناهب كسبه ، فلا تبقى ولا تذر . . .

هل من سبيل لانقاذه من تلك الكارثة التى توشك أن تحيق به فتسلمه إلى البوار ؟

كان مرة فى السينما ، فشاهد رواية إجرامية دارت أحداثها حول استغلال التأمين على الحياة ، فخلبه الموضوع ، وراقته الفكرة ، ومضى يسائل :

أما يجوز له أن يتخذ من موضوع التأمين سلما لانقاذ مستقبله ؟

لم لا ؟

وجلس إلى مكتبه ، وقد علت سحنته تلك المسحة الشريرة ، وأحس من قرارة نفسه باعثاً يحدوه على عمل فاصل وأمر محتوم . . . إنها الورقة الرابحة الكبرى ، أفلا يقامر بها ؟ إن حياته كلها كانت حتى اليوم ربحاً لا خسران معه ، فليجرب هذه المرة أيضاً سواتاة حظه ، وإنه لعلى يقين أنه لن يتنكر له . . .

عليه أن يضرب الضربة الحاسمة حتى تغنيه عن تلك المغامرات الصغيرة التافهة التى هى علالات عجاف !

فى هذه اللحظة طالعته صورة للفولى ملقاة على مكتبه ، وهو يبتسم ابتسامة تكشف عن قسماته الحيوانية ، كأنه يذكره بفضله عليه ، فتأمل الصوره حيناً بعين مغيظة ، وما عتم أن قذف بها بعيداً ، وراح يذرع الحجرة ذهاباً وجيئة . . .

الفولى . . . من هو ؟ بل ما هو ؟ . . . غر مأفون ، وسيموت يوماً ؛ ما من ذلك بد . فماذا إن تقدم به الأجل ؟ كثير غيره من كرام القوم وسراة الناس تجرى عليهم سنة الموت وهم فى ريّق العمر ، وفى الصبا النضر ، ومع ذلك تسير الدنيا ولا تفتأ تسير !

الفولى . . . إنه ميت لامحالة . . . ولكن المهم من أمره إذن أن يموت فى الوقت المناسب على الوجه المناسب ، فيضمن لموته قيمة لا تضيع ، وإنما تكون جزاء لولىّ نعمته الذى انتشله من الحضيض ، ورفعه فى مراتب الحياة درجات !

وانفرج الباب فى هذه اللحظة عن الفولى يخب فى حلته الجديدة غير

المهندمة وهو يحي الأستاذ شافعي بتلك الابتسامة المثيرة للأعصاب . . .

فتدانى منه الأستاذ شافعي وربت كتفه ، وهو يقول :

— سنخرج معاً . . . أمتأهب أنت ؟

— أنا طوع أمرك . . . إلى أين ؟

— سنمضى إلى بعض زيارات . . . زيارات هينة . . .

ثم أخرج من جيبه علبة لفائف ، ورمى بها نحو الفولى فى ملاطفة ومعابثة ، فلقفها الصبى وهو يترنح من طرب . . .

مضيا . . . متجهين إلى إحدى شركات التأمين . . .

وانقضى أسبوعان والأستاذ شافعي يستصحب ربيبه متنقلا به بين شركات التأمين يعرضه عليها مستشيراً إياها فى التأمين على حياته . . .

وكان يساوم ويفاضل ، ويستخبر مختلف الجداول المزدحمة بالأرقام ، حتى استقر قراره بعد لأى على اختيار إحدى الشركات السخية فى شروطها ، وبدأت بعد ذلك إجراءات الفحص الطبى ، فطرح الفولى بين يدى الأطباء يقلبونه كما يقلبون البضاعة المزجاة ، متفحصين إياه فى عناية واهتمام وحذر ، واستعانوا فى فحصهم بتحليل الدم واتخاذ الصور لأوصال الجسم المختلفة ، والصبى فى أثناء ذلك لا يحاول أن يفكر فى اكتناه الغاية مما يرى وما يسمع ، حسبه أن يحس الغبطة والانشراح والاعتزاز بذلك الجمع المحتشد من حوله يشمله باهتمام ملحوظ . . .

وبعد محاولات ومداورات حررت وثيقة التأمين ، فدسها الأستاذ شافعي فى جيبه فى عناية واحتراس . . . وما إن ترك المكان حتى التفت إلى الفولى يقول وعيناه تلتمعان التماعة الفوز والمرح :

— أتعلم ماذا كان من أمرك الساعة ؟

— ماذا ؟

فوقف الأستاذ شافعي يتأمله بعيني النسر الشره ، ثم قال :

— إن حياتك التى لم تكن تساوى قشرة بصلة ياسيد فولى قد أصبحت منذ اللحظة تساوى آلافاً من الجنيهات !

فحملق الفولى مبتهجاً مهتاج الخاطر ، ينشقّ فمه عن ابتسامته الكريهة البلهاء ، وهمهم :

— كيف ؟ . . . كيف هذا ؟

— ذلك هو الواقع . . . لقد رفعتك من لا شئ إلى كل شئ . لقد جعلت لحياتك قيمة غالية . . . افهم أنك أصبحت الآن عظيما ، عظيما جدا أيها الحيوان ! . . .

فتضاحك الفولى مترنح الأعطاف ، وقال :

— طال عمرك ، وبقى أولادك . . .

هنا تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ صلة الفولى بأستاذه الشافعى ، مرحلة يلعب فيها القدر لعبته الكبرى . . .

لقد أمّن الأستاذ شافعى على حياة الفولى بمبلغ ضخم ، وجعل نفسه وريثه الأوحد . . .

لقد توضحت المسألة . . .

إن الذى كان يخشى الأستاذ شافعى وقوعه قبل اليوم ، أصبح الساعة هو الذى يشتهيه ويتعجله ويرى فيه فردوس أحلامه . . .

عليه الآن أن يعمل بجد . . .

وسرعان ماشمر عن ساعد الاهتمام ، واستأنف مراجعته لمشروعاته ينمقها ويجيد إخراجها ويحملها بما يجعلها أحد وأمضى !

وتأهب الفولى لخوض المغامرات بعد فترة الراحة والاستجمام . . .

كانت الخطط السابقة تتسم بالحيطة والحذر ، ولكن الخطط الحاضرة يتجسم فيها التهور والتعرض للتهلكة . . .

وشرع الفولى يدرك ببصيرته الحيوانية ، بصيرته التى تنيرها غرائز الحرص على البقاء ، أن ثمة عنصراً جديدا قد اندس فى مغامرات اليوم . . . ولكن ما هو ؟

ذلك ما لم يستطع التفطن إليه والكشف عنه . . .

وأحس يوماً فى إحدى المغامرات يد الأستاذ شافعى تدفعه دفعاً تحت عجلات السيارة ، على حين أن الخطط فى سوالف المغامرات كانت تلزم الأستاذ شافعى أن يظل بعيداً عن الأنظار ، حتى تقع الواقعة . . .

وما هى إلا أن وجد الفولى نفسه فجأة يحجم ويتمنع ويتوقى ، فكان الاخفاق نصيب المغامرات المدبرة . وتأصلت فى قلب الفولى مخاوف لم يكن

يدرك تمام الادراك مأتاها . . . فكان وهو على أهبة التقحم فى سيدان الخطر يشعر فى اللحظة الحاسمة بما يزين له التراجع والفرار ، فاذا هو قد جانب الميدان ، وأطلق ساقيه للريح . . . !

أثار هذا الاخفاق المتتابع غضب الأستاذ شافعى ، فكان يعنف ربيبه أقسى تعنيف ، ويحضه على الاقدام والتشجع ، ويسائله :

ماذا أصابه حتى فقد رباطة جأشه وخفة حركته ؟

فلا يجيب الفولى إلا بما ينطبع على وجهه من سهوم وحيرة وارتتاج . . .

وكثيرا ما همّ الأستاذ شافعى أن ينحى على ربيبه بالضرب الموجع ، ولكنه كان يراجع نفسه ، ولا يلبث أن يقبل عليه يلاطفه ويتملقه ، ويلاينه بمعسول الأمانى . . . فكان الفولى يحدق فيه طويلا بعينيه الكابيتين الكئيبتين ، كأنه يريد أن يستكنه هذا الملق وما ينطوى عليه من سر . . .

وسرعان ما ينخرط فى بكاء وانتحاب ، وتستبد به الوحشة والانقباض ، كأنه تائه يضرب فى بيداء ماحلة تعوى فيها الرياح . . .

اختلت براسج الأستاذ شافعى كل اختلال ، وخلا إلى نفسه يسائل فى أمر هذا الصبى المعتوه ، وما عراه من تغير حال . . .

أى شئ أصاب الصبى حتى جعله يتخذ خطة أخرى فى مجابهة الصعاب وملاقاة المخاطر ؟

لقد كان من قبل مذعنا لارشاد أستاذه منجزا لخططه فى استسلام واطمئنان ، لا تقصير ولا عصيان . . .

فما خطبه اليوم يحجم ولا يبدو طيّعا كما كان ؟

ماذا جرى ؟

هل أحس أن نية سيده قد تغيرت نحوه ، وأنه يأتمر به ليهلكه ؟

لا ريب فى أن الصبى هو هو ، فعقله هو عقله ، وفطنته هى فطنته ، ليس بقادر على أن يستشف مجهولا ولا أن يستبطن شيئاً مما غاب . . .

أثمة وسيلة أخرى إذن غير العقل والفطنة تكشف عن البصائر وتجلو السرائر وتتوضح بها النيات ؟

أفى مستطاع الغرائز غير مستعينة بالعقل والادراك أن تستشف من حقائق الحياة وغيوب التدابير ما قد تعيا به العقول والفطن ؟

كان الفولى مستسلماً مطمئنا ، يوم كانت نيات أستاذه الشافعى نحوه بيضاء لا تريد له هلاكا ، بل تبغى حمايته والاحتفاظ به . . . ولكن الصبى اليوم ينقلب إلى الضد ، فيتقيه ويحذره ويستريبُ به ، لا لسبب إلا أن الأستاذ شافعى فى سريرة نفسه التى لا يعلمها أحد قد فكر فى الخلاص من ربيبه . . .

أترى الفولى بواعيته الخفية قد أحس ذلك الانقلاب فيما يهدف إليه أستاذه من أغراض . . .

عالج الأستاذ شافعى ربيبه بمختلف الذرائع وأشتات المغريات ، وإذ يضيق بأمره ذرعا لا يجد بدا من أن يتقصده بالضرب المبرح والايذاء الأليم . . .

فكان الفولى يحتمل الأذى فى صبر وجلد ، لا يروعك منه إلا كشرة ضارية تعلو فمه كما تكشر الذئاب المتأهبة للانتهاش . . .

ولا يكاد الأستاذ شافعى يرى الفولى قد كشر عن أسنانه على هذه الصورة البشعة حتى يتقهقر عنه ، وقد أوجس خيفة منه !

وانتهى الأمر بأن أعلن الفولى جهرة إضرابه عن تنفيذ أى مشروع يراد عليه . فأسقط فى يد أستاذه الشافعى ، وذهبت محاولاته كلها أدراج الرياح ، وتلبس الفولى بعناد كما يعاند الحمار إذا حرن ، وتأبَّى أن يتزحزح عن موقفه مهما يكن من أمر . . .

ونشبت بين الصبى ومروِّضه عداوة مضطرمة كان من العبث إخفاؤها . . . وكان الأستاذ شافعى يكاشف صبيه بالعداء فى ضجة وعنف . فأما الصبى فقد ظل منطويا على ضغنه الخبئ ، يجلس الساعات الطوال فى ركن من الحجرة وحيدا يحدق فى الفضاء أمامه بعين تائهة حيرى ، وقد يفيق بغتة من غشيته على أثر رجفة تنتظم أوصاله ، إذ يتراءى فى مخيلته الأستاذ شافعى وقد عاجله بضربة على أم رأسه تسقطه مضرجا بدمه . . .

وكم من مرة جمعت بينهما حجرة واحدة . . . الأستاذ شافعى جالس إلى مكتبه وهو عابس يتنفخ ، والصبى متجمع فى ركن قصِىّ يخالس أستاذه النظر ، فكلما تلاقت عيونهما ألفى الفولى نفسه يصرّ بأسنانه صريرا لا يخطئه السمع ، وقد انفرجت شفتاه ، وتحفز للذود عن نفسه وحياطتها من كل مكروه . . .

تواصلت الأيام ، والفولى غريق عناده وكآبته وصمته ، وبدأ الأستاذ شافعى يجد ريح الأزمة المقبلة ، فجن جنونه ، وأقبل على ذكائه يهزه ويعتصره ، ولكن عزّ المعين !

وسرة كان الغريمان على حالها فى حجرة المكتب ، وإذا الأستاذ شافعى ينهض واجف الأوصال من الغضب ، مكفهر الوجه من الغيظ ، وصاح بالفولى قائلا :

— تعال هنا ياولد . . .

فرماه الفولى بنظرة نكراء ، ولم يبد من حراك . . .

فردد الأستاذ شافعى صيحته :

— تعال هنا يا ولد . . . هل خرست ؟

فأشاح الفولى برأسه يأبى الاستجابة للأمر . فخطا إليه الأستاذ شافعى ، فما إن رآه الفولى مقبلا حتى نهض دفعة واخدة ، فزأر الأستاذ شافعى قائلا :

— لماذا لا تطيع أمرى ؟

فهمهم الفولى فى صوت محتدم كظيم ، وقد علت وجهه سحابة كدرة مفزعة :

— هكذا فعلت !

— وإنك لتتوقح فى القول ؟

— هكذا أنا . . . !

فنفرت أوداج الأستاذ شافعى ، وألقى يده تتعالى ، ثم تهبط بصفعة عاصفة ، فاهتز لها كيان الصبى ، ولكنه لم يزل عن موقفه ؛ وكل ما كان منه أن انقلبت عيناه بقعتى دم فائر . . . وهمهم وهو يصر بأسنانه صريراً يكاد يحطمها :

— لا تضرب !

فتحمس الأستاذ شافعى ، وصاح مجلجلا بصوته :

— أضربك وأضرب شياطين أبيك . . .

فتابع الصبى صرير أسنانه ، وجمجم :

— قلت لك لا تضرب . . .

— إنك خارج الآن معى . . .

— كلا . . .

— قلت لك إنك خارج . . .

— لن أخرج !

وارتفعت يد الأستاذ شافعى ، وما كادت تهبط بصفعتها حتى التقت بيد متحجرة جبارة تمسك بها فى قساوة وعنف . . .

وسرعان ما التحم الخصمان ، وكانت معركة حامية الوطيس ، معركة تجرى على الفطرة ، كل خصم يحرص على أن ينال من خصمه جهد ما يستطيع بكل ما أوتى من قوة وشراسة . . .

فكانت الضربات تتهاوى هنا وهنالك ، وكان الخمش والخدش يتناثران ذات اليمين وذات الشمال . . .

وإن أحدهما ليقبض على خصلة شعر خصمه ، فلا ينزع يده إلا وقد اجتثها من أصولها . . .

لقد توارت إنسانية الخصمين ، فلم يبق منهما إلا صورة الحيوانية الباغية الطاغية لا تعرف غير الضراوة والافتراس !

وجرت المعركة لا يسمع فيها إلا هرير الأنفاس ، والارتطام بالحوائط والأثاث ، ووقع اللكمات والضربات . . .

وتدانى الجسدان من الشُّرفة ، وسرعان ما اشتبكا فى عراك على سورها ، ثم ألفيا نفسيهما بغتة يسقطان متخبطين فى الهواء . . .

ولم تكد صيحتهما تعلو حتى ذهب بها صوت سقطتهما العنيفة من حالق . . .

فارتمى الجسدان هامدين !

وتجمع حولها السابلة ، وبعد حين تهادى الشرطىّ ، والناس من حوله يصفون له ما وقع فى تضارب واختلاط . . .

فى هذه اللحظة الهوجاء وقعت عين الشرطىّ على شئ أبيض يطل من جيب الأستاذ شافعى ، وكأن هذا الشئ يحاول جهد الامكان أن يفسح له مثابة فى عالم النور ليعلن وجوده فى وضوح . . .

فاجتذبه الشرطى يتعرف ما هو ؟ فاذا هو غلاف كبير مكتوب فى جبينه بالخط العريض :

وثيقة التأمين على الحياة ! . . .

محمود تيمور